(١)

بيئة تعبق بالإيمان

ولدت السيدة زينب بنت الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء فى شهر شعبان سنة ٦ هجرية ونشأت فى هذه البيئة التى تعبق بالإيمان والتقوى وحب الله.. إنها بيئة أهل البيت وما فيها من جمال الإيمان، وجلال اليقين، وروعة الجهاد فى سبيل قيم الإسلام ومبادئه، والإخلاص للرسالة الخالدة التى جاءت لتغير معالم الحياة ليس فى شبه الجزيرة العربية وحدها، بل فى مختلف أرجاء العالم.

تفتحت عيناها على الحياة فى مدينة رسول الله، وكان الإسلام الذى جاء به جدها العظيم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، قد حقق انتصارات مذهلة على أهل الشرك والضلال، والبغى والعماية.. ولم تعد الحياة كما كانت قبل أن يبشر جدها عليه الصلاة والسلام بالدين الجديد.. وما فيه من توحيد.. وعبادة الإله الواحد.. الذى خلق الحياة والموت.. وخلق كل الموجودات لتوحيده وعباداته والعمل بالشرائع التى أنزلها على رسله وأنبيائه.. وهو الذى سيبعث الناس يوم القيامة ليجازى كل إنسان بما قدمت يداه.. إن خيرًا فخير.. وإن شرًا فشر.

جدها هو الذى تحمل ما فوق طاقة البشر لينشر الإسلام الذى يبشر بالعدالة والكرامة وحرية الإنسان أناسًا أضناهم الجهل والجهالة، وعبادة ما لا ينفع ولا يضر من أوثان وأصنام.. وهو الذى بشر الناس بحياة جديدة.. العزة فيها لله ولرسوله وللمؤمنين.. لا مكان فى المجتمع الذى ينادى به للقهر أو الخوف أو الطغيان.. الناس جميعًا سواسية.. لا فرق بين إنسان وإنسان مهما كانت جنسيته أو عصبيته أو لونه إلا بالتقوى.. التقوى وحدها هى مقياس التفاضل بين الناس.

الغنى لا يرفع صاحبه درجة.. والفقر لا يخفض صاحبة درجة.. الإنسان هو الإنسان سواء كان غنيًا أو فقيرًا.. قويًا أو ضعيفًا.. التفاضل فى الإسلام يقاس بمقياس ما يقدم الإنسان من عطاء للآخرين بجانب الإيمان وتقوى الله.

الغنى الشاكر الذى يعطى حق الله فى زكاة المال ولا يتباهى ولا يتيه زهوًا بغناه ..قريب من الله.. قريب من الناس بتقواه.

والفقير الصابر الذى يعمل بالأسباب، ويجاهد فى سبيل دينه، ويعمل وفقًا للمبادئ الذى جاء بها الإسلام قريب من الله وقريب من الناس لتقواه وحسن معاملته للآخرين..مجتمع جديد.. يعبق بجلال الإيمان، وروعة اليقين وقداسة ما جاء به من مبادئ وقيم وأخلاقيات.

شاهدت زينب رضى الله عنها وهى تستقبل أيام الحياة التحولات الكبرى التى حدثت فى شبه الجزيرة العربية بفضل الدين الجديد الذى أوحى به الله سبحانه وتعالى إلى جدها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. .لقد آمنت بهذا الدين أمها فاطمة، ووالدها على بن أبى طالب. . وكان أول صبى دخل فى الإسلام.

وطالما سمعت فى طفولتها بوقوف جدتها العظيمة خديجة بنت خويلد بجانب الرسول الكريم، وتحملت معه غباء جاهلية مكة وصلف طغاتها الذين كادوا للإسلام ونبى الإسلام.

وربما مس مسامعها فى سنها تلك الصغيرة موقف أمها فاطمة الزهراء، عندما كانت تذهب إلى بيت الله الحرام لتزيل الأقذار التى كان يرميها بغاة مكة عن والدها وهو يسجد لله فى بيته الحرام. . وكلما مرت الأيام. . كلما بدأت تدرك ما يجرى حولها من أحداث وتحولات خطيرة على يد جدها العظيم. . وأنها لترى كيف كان يحتفى جدها العظيم بأخويها اللذين يكبرانها سنًا. . الحسن والحسين. . الإمام الحسن الذى ولد بالمدينة ليلة النصف من شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة. . وقد سماه جده الحسن. . والحسين الذى ولد فى المدينة لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة. . وقد أسماه جده

الحسين.. وقد ولدت زينت بعد الحسين بعامين فى سنة ستة هجرية، وسماها جدها زينب على اسم خالتها زينب بنت رسول الله ﷺ.

وكانت زينب بنت الرسول حبيبة إلى قلب والدها عليه الصلاة والسلام، وقد تزوجت «أبو العاص بن الربيع».. وكان يحبها وتحبه.. إلا أنه ظل على دين قريش، وعندما وقعت غزوة (بدر).. وقع العاص بن الربيع فى الأسر وعندما سمعت زينب بأسر زوجها، أرسلت إلى والدها قلادة كانت أمها خديجة قد أهدتها لها فى ليلة زفافها، ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام القلادة، وتذكر زوجته الغالية الراحلة خديجة وقال لأصحابه:

«بعثت إلىّ زينب بقلادة خديجة لتطلقوا لها زوجها فإن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها قلادتها فافعلوا».

ورأى الصحابة مدى تأثر رسولهم عليه الصلاة والسلام بذكرى زوجته الراحلة، وابنته الحبيبة التى تعيش فى مكة.. فأطلقوا سراح أبوالعاص بغير فداء.

وقبل أن ينطلق أبوالعاص، أخبره النبى أن عليه أن يرسل ابنته زينب إلى المدينة، لأنها لم تعد تحل له لأنها مسلمة وهو مازال على دين قومه.

ورجع أبوالعاص إلى مكة، وهو يذوب خجلاً من حسن معاملة رسول الله له، ومن حب زوجته زينب وإرسالها أعز هدية تملكها لتفديه من الأسر.

رجع أبو العاص إلى مكة، ووفى بعهده إلى الرسول، وأرسل زينب ـ رضى الله عنها ـ إلى المدينة.

ومرت الأيام..

وبعد غزوة الأحزاب التى انتصر فيها المسلمون على أعدائهم.. بعد أن اختلف الأحزاب واليهود، وأرسل الله ريحًا عاتيًا اقتلعت خيام جيوش الأحزاب، لم يجد قائدهم أبو سفيان ابن حرب مفرًا من العودة إلى مكة.. بعد أن عجز عن اختراق الخندق الذى حفره المسلمون حول مدينتهم بمشورة سلمان الفارسى..! نقول بعد هذه الغزوة.. كانت هناك قافلة بمكة قادمة من الشام، وعلم المسلمون بذلك فأرسل الرسول جماعة من المسلمين بقيادة «زيد بن حارثة» والتى استطاعت أن تحيط بالقافلة وتستولى عليها.. فهرب بعض رجالها، واستسلم البعض الآخر، وكان من الذين هربوا «أبوالعاص بن الربيع» زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، واتجه نحو المدينة، واستجار بزوجته زينب بنت الرسول على أساس أنها قبل أن تكون زوجته

فهى ابنة خالته، وأجارته زينب رضى الله عنها.. فقد خرجت ونادت المسلمين.

- أيها الناس

إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

وسمع أعظم رسل السماء صوت ابنته فقال:

- أيها الناس

هل سمعتم ما سمعت.

قالوا: نعم.

قال: والذى نفسى بيده ما علمت بشئ من هذا حتى سمعت ما سمعتم.

وقال:

المسلمون يد واحدة.. يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارت.

وعاد الرسول إلى منزله.. واستقبلته ابنته زينب طالبة منه أن يرد المسلمون ما أخذوه من أبى العاص حتى لا تظن به مكة غدرًا، أو أنه فعل ذلك من أجل زوجته!

وخرج رسول الله إلى صحابته وقال لهم:

«إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا.. فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له، فإنا نحب ذلك.. وإن أبيتم فهو فئ الله الذى أفاء عليكم، فأنتم أحق به».

فقالوا:

يارسول الله: بل نرده.

وأخذ أبوالعاص أمواله وعاد إلى مكة، وأعطى لكل صاحب حق حقه، ثم أعلن إسلامه وسط أهل مكة، وعاد إلى المدينة.. ويعلن أمام الرسول إسلامه ورغبته فى العودة إلى زوجته الحبيبة زينب بنت الرسول عليه الصلاة والسلام.

غير أن زينب ما لبثت أن أحست بالمرض، وانتقلت إلى جوار ربها، وتركت طفلة جميلة هى أمامة.

وقد حزن عليها الرسول حزنًا شديدًا، كما حزن زوجها على تلك الزوجة الوفية التى أحبها حبًا لا يعادله شىء آخر فى الوجود.

وكأن الرسول عليه الصلاة والسلام يريد أن يعوض حنانه الذى فقده برحيل ابنته زينب فى ابنتها أمامه.. فكان يأخذها على كتفه إلى المسجد.. يداعبها ويحمل لها ما يحمل لأمها من مشاعر الأبوة.. حتى أنه عندما أهدى إليه قلادة يمنية قال لنسائه:

ـ لأهدين هذه القلادة إلى أحب أهلى إلىّ.. وباتت نساء الرسول يتخيلن أن التى سوف تفوز بالقلادة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولكن الرسول أهدى القلادة لحفيدته أمامة بنت بنته زينب رضى الله عنها.

ولحب الرسول عليه الصلاة والسلام لابنته الغالية زينب، سمى زينب لابنة فاطمة الزهراء، وعلى بن أبى طالب..!

وكانت زينب بنت فاطمة تذكره بابنته الغالية كبرى بناته زينب رضى الله عنها، التى دفنت فى البقيع فى السنة الثانية من الهجرة.

* * *

إن زينب بنت الإمام على كرم الله وجهه.. والذى واكب مولدها التغيرات الكبرى فى شبه الجزيرة العربية والعالم كله.. كانت صغيرة جدًا أثناء هذه التغيرات الجذرية التى أحدثتها الرسالة الخالدة.

ولكن نشأتها فى بيت على كرم الله وجهه.. وما كان عليه من فصاحة وبلاغة وإيمان عميق.. وبطولات سجلها له التاريخ فى أنصع صفحاته مع ابن عمه العظيم عليه الصلاة والسلام.. والتصاقها الحميم بوالدتها فاطمة الزهراء.. بشخصيتها القوية الآسرة، أكسبها الأخلاق الرفيعة، والقيم النبيلة، والبلاغة التى

سنعرفها عندما تمتد بها أيام الحياة، وتواجه بشجاعة منقطعة النظير طغاة بنى أمية بعد استشهاد شقيقها الإمام الحسين.

فقد صهرتها الأيام والمحن والشدائد.. ! لأنها واجهت الحياة فى سن صغيرة جدًا.. فقد مات جدها العظيم وهى ما تزال فى الخامسة من عمرها بعد أن ملأ الدنيا نورًا وهداية ورشادًا.. وترك ديناً خالدًا بهر الدنيا كلها، وأضاء جنبات المعمورة، وأعز الله به العرب، وتحولوا به من قبائل متنافرة متناحرة لا وزن لها، إلى أمة قوية الجانب، مُهابة السلطان، غزت امبراطورية الروم، وهزمت الفرس، وامتد نور الإسلام إلى مختلف أرجاء الدنيا بما لم يكن يخطر على بال أحد.. وشهدت موت أمها الزهراء بعد رحيل جدها العظيم بعدة شهور.. وقد أوصتها بأخويها الحسن والحسين وأن تكون لهما بمثابة الأم!

الأم وهى ما تزال فى الخامسة من عمرها.. فى الخامسة من عمرها تحمل مسئولية أخويها الحسن والحسين وترعى والدها فى نفس الوقت الذى كان له دوره التاريخى فى التاريخ الإسلامى.. منذ وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى أكرم جوار، وانشغاله بجهازه.. ومشاركة ما دار من أحداث، منذ أحداث السقيفة التى آلت من خلالها الخلافة إلى أبى بكر الصديق، ثم مشاركته الإيجابية فى

الحياة السياسية أيام الفاروق عمر بن الخطاب، ومعاصرته لأحداث الفتنة الكبرى إبان حكم عثمان بن عفان رضى الله عنه، إلى أن آلت إليه الخلافة، وما كان فيها من أحداث جسام.. فلم يهدأ للإمام جفن منذ توليه الخلافة إلى أن استشهد على يد عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج.. بعد أن خاض حروبًا بالغة الصعوبة مع معاوية وجند الشام الذين حاربوا الإمام لأنه عزل معاوية عن ولاية الشام، ورفض معاوية ذلك بحجة الانتقام من قتلة عثمان.. كما خاض معارك مع الخوارج، ومع طلحة والزبير والسيدة عائشة.. مشكلات بالغة القسوة واجهت والدها الإمام على.

وحروب أهلية مستمرة مع أعدائه والخارجين عن الحكم طوال خلافته التى امتدت قرابة خمس سنوات.

كل هذه الأحداث التى عاشتها السيدة زينب رضى الله عنها مع والدها الإمام، وأخويها الحسن والحسين.. كفيلة بأن تجعلها على درجة عالية جدًا من الوعى الدينى والسياسى.. وهذا الذى سيظهر بشكل واضح جلى عقب تتابع الأحداث السياسية، بعد استشهاد الإمام علىّ كرم الله وجهه، وتنازل أخوها الحسن لمعاوية عن الحكم حتى تتوحد كلمة المسلمين، على أن يؤول الحكم بعد ذلك إلى من يختاره المسلمون عن طريق الشورى، وصدق فيه ما قاله عنه جده عليه الصلاة والسلام.

ـ إن ابنى هذا سيد، ولعل الله عز وجل أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين.

ولكن الإمام الحسن - كما يقول بعض المؤرخين - قد مات مسمومًا.. وآلت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان الذى حولها إلى ملك عضوض.. مما دفع الإمام الحسين بعد ذلك أن يثور على يزيد بن معاوية ليأخذ التاريخ مجرى آخر.. وتتحول الأحداث إلى مسارات جديدة، كان لها نتائجها على مجرى التاريخ الإسلامى.. عندما استشهد الإمام الحسين بكربلاء، ومُثّل بجسده الشريف، وانتزعت رأسه ليطاف بها فى شوارع الكوفة وطرقاتها، ويعبث بها العابثون من طغاة بنى أمية.. مما كان أحد الأسباب الهامة لقيام الثورات ضدهم، وتأليب الناس عليهم، لأن الناس لم تستطع أن تقبل الجرائم التى ارتكبت فى حق الإمام الحسين، وآل بيت رسولهم العظيم ﷺ، مما دفع الأحداث دفعًا إلى طريق أدى فى النهاية إلى القضاء على دولة بنى أمية، وقيام دولة بنى العباس على أنقاضها، وكان للسيدة زينب رضى الله عنها دورًا بالغ الأهمية فى أحداث كربلاء، وما بعدها.

* * *